أماكن في الذاكرة (2)

حائل في ذاكرتي



صالح محمد الهلابي

الطبعة الأولى

2025

حائل في ذاكرتي

صالح محمد الهلابي

مقدمة

بعد زيارة مدينة عرعر أكثر من ثلاث مرات، كانت الوجهة التالية هي مدينة حائل، تلك العروس الشمالية التي يفخر بها أهلها.

في تلك الأيام، لم تكن لدينا سيارة بعد وفاة والدي (رحمه الله) لذا كانت رحلاتنا تعتمد على الطائرة، مما جعلنا مختلفين عن أقاربنا وجيراننا، الذين اعتادوا التنقل بسياراتهم.

حائل التي عرفتها في زياراتي الأولى منذ عام 1979م لم تعد كما هي اليوم، فقد تغيرت ملامحها، وتبدلت معالمها، لكن شيئًا واحدًا بقي ثابتًا :أهلها بكرمهم الحاتمي وأخلاقهم النبيلة.

في هذه الصفحات، سأروي لكم تفاصيل زياراتي إلى حائل عبر العقود الثلاثة، ما بين الثمانينات، والتسعينات، والألفية الجديدة، في رحلات تباينت مدتها، لكن بقيت ذكرياتها محفورة في الذاكرة.

صالح محمد الهلابي

الرياض

2025/5/10م

الفصل الأول

حائل في السبعينات والثمانيات

كانت حائل وجهتي في رحلتين نقش الزمن ملامحهما في ذاكرتي، الأولى في عام 1979م، والثانية بعدها بعامين، عام 1981م. لم تكن الزيارتان مجرد سفر عابر، بل كانتا محطتين من العمر، محفورتين بالمشاعر والذكريات، وقد سافرت إليهما لحضور مناسبتين عزيزتين على قلبي: زواج ابنتي عمي، حيث اجتمعت الأسرة وتجمّعت الألفة في أحضان الفرح.

في الزيارة الأولى، التي لم تتجاوز الأسبوع، وصلتُ بشغف من يسابق الوقت لاحتضان أهله وأحبّته. كانت المدينة وقتها تبتهج بصفاء الجو، والنسيم يحمل عبق التراب.

الأحاديث تمتدّ حتى أطراف الليل، في مجلسٍ يعبق بالقهوة العربية ودفء القلوب. رغم قصر المدة،

شعرتُ وكأن الزمن تواطأ معي ليمنحني من كل لحظة طيفًا لا يُنسى.

أما زيارتي الثانية، فكانت أكثر طولًا وعمقًا، إذ امتدت لثلاثة أسابيع كاملة. وهناك، لم أكن مجرد زائر يحضر حفلاً ويمضي، بل عشت تفاصيل المدينة كما يعيشها أهلها، فتنقلت بين أحيائها القديمة، وتذوقت خبز التنور في الفجر، وجلست في الأسواق الشعبية أراقب حركة الحياة، وتعرفت على طباع أهل حائل وكرمهم الأصيل. كنت أستيقظ مع أول خيوط الشمس، وأمضي يومي بين الجبال والرمال، أستنشق هواءً يحمل عبق التاريخ، وأتأمل وجوهًا تقرأ فيها الحكمة والصلابة.

حائل، في تلك الزيارتين، لم تكن مجرد مدينة في الشمال، بل كانت حضنًا دافئًا، أعاد لي شعور الانتماء والسكينة. كانت تلك الرحلتان بمثابة نافذتين أطللتُ منهما على حياة مختلفة، هادئة في صخبها، وعميقة في بساطتها.

حادثة الطائرة



مصرع ٢٦٥ شخصاً

في حادث إحتراق طائرة بمطار الرياض

• سيارات الإطفاء والإسعاف وطائرات الهليكوبتر الخاصة بالإطفاء لم تستطع السيطرة على الحريق .. رغم كل المحاولات التي بذلها رجال الإطفاء

• حكومة جلالة الملك ترفع أحر التعازي لذوي المتوفين - وبيان تفصيلي يصدر في وقت لاحق متضمناً ما يستجد من معلومات عن الحادث

الرياض/واس:

شب حريق مساء امس في احدى طائرات الركاب السعودية من طراز ترايستار القادمة من كراتشي وذلك بعد اقلاعها من مطار الرياض في طريقها الى جدة.

وقال بيان لرئاسة الطيران المدني والخطوط الجوية السعودية انه يخشى ان يكون ركاب الطائرة وعددهم ٢٦٥ شخصا بما فيهم ١٦ ملاحا قد لاقوا وجه ربهم.

في **19أغسطس 1980م**، وقعت **كارثة طائرة (الترايستار)** في مطار الرياض، مما زاد من **مخاوف الناس من السفر جوًا** .كانت الحادثة حديث المجالس، والجميع يستذكر تفاصيلها بحذر.

حضرنا زواج بنت عمي شريفة عام 1979م فكان فرصة لنا ونحن صغار أن نستمتع بالرحلة بالطائرة قبل حادثة الطائرة.

لكن بعد هذه الحادثة تغير الحال، أصبح ركوب الطائرة نوع من المغامرة لا يقدم عليها إلا المضطر

لركوب الطائرة. ربطنا الحقائب متوجهين لحائل للمرة الثانية. لحضور **زفاف ابنة عمي هيلة غير مبالين بمخاوف المتداولة عند الناس.**

أصبح لدينا **خبرة بالسفر الجوي**، دخلنا مطار الرياض القديم دون قلق. كل شيء سار بسلاسة، ركبنا الطائرة مستمتعين بالطائرة، أقلعت الطائرة من مطار الرياض ليلاً ونحن نشاهد مدينة الرياض وقد بدأت تختفي انوارها بعد البعد عنها، وعندما **اقتربت الطائرة من أجواء مطار حائل...**

شاهدنا من نافذة الطائرة، أضواء شوارعها تتلألأ تحتنا، كنا مستعدين للهبوط، لكن ...**الطائرة استمرت في الدوران فوق مدينة حائل،** بدأ الركاب يتهامسون، والقلق يتسلل إلى الوجوه.

ثم جاء الصوت من مكبرات الطائرة...

"أيها الركاب الكرام، نواجه خللًا فنيًا، سنعود إلى مطار الرياض".

في تلك اللحظة، تعالت **صرخات الخوف**، واسترجع الجميع حادثة **الترايستار المأساوية، وكأنها تُعاد أمام أعينهم.**

حاول طاقم الطائرة تهدئة الركاب، لكن الشائعات بدأت تنتشر بينهم...

"العجلات معطلة"!

"سيهبطون بنا على الرغوة"!

"يا رب سلّم"!

بكاء النساء، همسات الدعاء، وصراخ الأطفال ... كانت لحظات تختلط فيها **الرهبة والتسليم لقضاء الله.**

ثم جاء الصوت مجددًا:

"استعدوا للهبوط في مطار الرياض".

لم يكن أحد مستعدًا! ساد **الصمت المشحون بالخوف**، وبدأت الطائرة **بالانخفاض الحاد**، وكأننا

نسقط على أرض ترابية! لكنها لم تكن سوى أوهام **لحظة ارتطام العجلات بالأرض.**

عند الوصول لصالة مطار الرياض، كان التعب والصدمة باديين على الجميع. طلب منا انتظار رحلة بديلة بعد **ساعتين**، لكن البعض لم يحتمل إعادة التجربة، وقرر **الانسحاب من الرحلة نهائيًا**.

أما **والدتي**، فكانت مختلفة تمامًا... وقفت بثبات قائلة:

"لن نتأخر عن أداء واجب حضور الزواج، سنعود مع الرحلة الجديدة".

عدنا للطائرة بعد أن **فرغت مقاعد كثيرة ممن قرروا الانسحاب** .حلقنا مجددًا، ووصلنا إلى حائل بسلام، حيث وجدنا المستقبلين في قلق شديد بعد تأخرنا **أربع ساعات**.

الذهاب إلى بيت عمي



بيت عمي عبدالله في (حي الزبارة)، بالقرب من (جبل أَعيرف) الشهير في حائل، يرسل شعورًا بالتميز بمجرد أن تطأ قدماك الأرض هناك. شوارع الحي واسعة وقد تمزج بين الجمال الطبيعي وسمات المكان التراثية بلمسات عصرية.

البيت نفسه كان قصرًا طينيًا مبنيًا على الطراز النجدي القديم، يلهم الزائر بجمال تصميمه الفريد. عند المدخل الرئيسي كان هناك مجلس كبير، يحاكي ذات الطابع والنكهة التقليدي. في الفناء الداخلي،

كانت نخلة شامخة تتوسط المكان، بينما تحيط بها غرف كثيرة ومتنوعة، تشكل وحدة منسجمة تعكس ثقافة الأسرة.

رغم أن مناسبة الزواج كانت بعد عيد الفطر المبارك، وصل بعض المدعوين قبل نهاية (شهر رمضان)، حيث كان الناس في تلك الأيام يفضلون السكن مع أقاربهم لغياب الخيارات السكنية المتوفرة.

ذلك الجوار الأسري ساعد في ايجاد تواصل قوي وتقارب بين القلوب، حيث لم يكن لديهم وسائل تواصل أخرى سوى الرسائل التي كانت تتأخر كثيرًا .

أمضيت وقتًا رائعًا مع عمي وأبنائه، صنعت معهم ذكريات عميقة، وعندما عدت إلى الرياض كنت أشارك أصدقائي حكاياتي ومشاعري التي كانت ما زالت تنتقل بين ثنايا ذكرياتيالزواج بحائل.

الزواج في حائل



كان الزواج في حائل مختلفًا عنا في الرياض، يحمل عادات جميلة وغامضة لم نكن على علم بها.

إحدى هذه العادات كانت ما يُطلق عليه "**السفارة**". ففي أحد الأيام، فتح عمي باب بيته في حي الزبارة، وجهز مجلسه لاستقبال الضيوف. عندما سألت أبناءه عمي من الضيف القادم، أجابوا: "اليوم عندنا سفارة"، فظننت أن أحد السفراء سيزورهم.

انتظرت مع أبناء عمي "السفارة"، وقد طلبوا مني حمل المبخرة التي توضع فيها قطعة من العود

الأصيل لتعطير المكان، بينما تولى أبناء عمي مهمة حمل الدلال، يصبون القهوة بمهارة في قاع الفنجان.

فجأة، وصل وفد من الضيوف، يبلغ عدده حوالي عشرين رجلاً؛ في مقدمتهم شاب وسيم يصاحبه رجلان مسنان، والجميع يرتدي البشوت.

تقدم عمي مرحبًا بهم بصوت عالٍ وجلسهم في مجلسه، بينما قام أبناءه بتقديم القهوة لهم. وأنا، ومع المبخرة في يدي، أراقب المشهد بفضول. لم يمضِ على جلوسهم دقائق معدودة حتى غادروا المجلس، يرافقهم عمي حتى الباب.

تابعتهم وهم يسيرون في الشارع، متوجهين إلى بيت الجار التالي، ثم استمروا في المرور على بيوت الجيران.

عندها أدركت معنى "السفارة": هي عادة يقوم بها العريس وأهله بزيارة الجيران قبل الذهاب إلى حفلة الزواج، كنوع من التكريم والمشاركة في الفرحة.

أما بقية تفاصيل الزواج، فقد كانت مشابهة لتلك التي نراها في الرياض؛ حيث يتكافل الجيران لإقامة حفلة الزفاف في أحد الشوارع، والتي تطورت لاحقًا إلى "الأحواش" قبل ظهور قصور الأفراح الحديثة. ومن العادات السائدة آنذاك أن تقدم أسرة العروس هدايا لضيوفهم من الأقارب؛ إذ تُقدم للنساء قطع قماش، وللرجال بشوت، لكنها اندثرت مع مرور الوقت واختفاء العديد من العادات التقليدية.

دوري الحواري

في أحد الأيام، طلب مني أبناء عمي مرافقتهم لمشاهدة مباريات دوري الحواري. وعندما حضرنا المعلب، كان مكتظًا بالجماهير التي تهتف بحماس لفرق لم أكن أعرفها جيدًا.

أثناء المباراة، أبهرنا أداء حارس المرمى الذي تصدى لهجمات الفريق المنافس ببراعة. وبعد انتهاء اللقاء، قابلنا هذا الحارس وصافحناه؛ فقد كان معروفًا لدى أبناء عمي، الذين أخبروني:

"هذا عبدالله الدعيع، حارس الطائي".

في تلك الأيام، لم يكن من المستغرب رؤية لاعبي الأندية يشاركون في دوري الحواري؛ فقد شاهدت يوسف الثنيان يبرز في الدورات الرمضانية مع فرق الحواري.

وبعد ثلاث سنوات من ذلك اللقاء، وفي عام 1984م، رفع عبدالله الدعيع كأس آسيا مع المنتخب السعودي. اتصلت بابن عمي للتأكد، وأكد لي أن الحارس الذي قابلناه في حائل هو نفسه الذي أصبح فيما بعد رمزًا في عالم الكرة.

الانطباع الأول عن حائل



ما إن وطأت قدماي حائل للمرة الأولى، حتى بدأت تلقائيًا أعقد المقارنات بينها وبين مدينتي الأثيرة عرعر. كانت المقارنة حاضرة في كل شيء؛ في الشوارع، في الوجوه، وحتى في طقوس الليل. بدا لي أن حائل تسير على وتيرة مختلفة، نبضها أكثر هدوءًا، وأكثر اتساعًا من تلك التي عهدتها في عرعر.

يكفي أنني رأيت الناس يتجولون فيها ليلاً بكل أريحية، دون خوف أو توجس من صوت صافرة أو ظهور مفاجئ لدورية شرطة، في وقت كانت فيه عرعر

تفرض حظرًا على التجول بعد منتصف الليل، تحديدًا بعد الساعة الثانية عشرة، وكأن الحياة فيها تُطفأ مع آخر نبضة للساعة.

في عرعر، كان الشارع العام هو شريان المدينة الوحيد، القلب النابض الذي تتجمع حوله الحركة والناس، كأنها مدينة تدور حول محور واحد. أما حائل، فقد بدت لي أوسع أفقًا، تنبض بالحياة في أكثر من مكان. شوارعها متعددة، وأسواقها الشعبية متناثرة كأنها حكايات تحكي وجوهًا وطبائع مختلفة، وأزقتها تنبض بنكهة الماضي وحديث الحاضر.

لكن إن كانت حائل قد تفوقت في حرية الحركة واتساع المدينة، فإن لعرعر سحرًا لا يُضاهى في نكهة الطعام. تنوع الثقافات هناك انعكس على المذاق، على الأطباق، على رائحة المطابخ التي تفتح شهية الغريب قبل ابن البلد. في عرعر، كنت تشعر أن كل وجبة تحكي قصة، مزيج من أصول متعددة اجتمعت في طبق واحد. أما حائل، فرغم حضور

المذاق المحلي الأصيل، ظلت نكهتها محدودة بإطارها، محافظة على هوية واحدة.

هكذا، شكّلت زيارتي لحائل لحظة اكتشاف، وتجربة مقارنة حيّة بين مدينتين متجاورتين في الجغرافيا، لكن متباعدتين في الإيقاع والتفاصيل. كلٌّ له سحره، وكلٌّ ترك في نفسي أثرًا لا يُمحى.

الفصل الثاني

حائل في التسعينات

رحلة طلاب كلية الزراعة إلى حائل



في سنتي الأخيرة في الجامعة، حين بدأت أحلام المستقبل تُزهر في الأفق، نظّمت كلية الزراعة رحلتين لطلابها الخريجين، واحدة إلى تبوك، والأخرى إلى حائل.

وجدتُ نفسي أميل لاختيار حائل، ليس فقط لقربها من الرياض، بل لأمل خفي راودني، أن أجد فيها موطأ قدم أول في الحياة المهنية، وأن تكون تلك الرحلة بداية لفرصة عمل أبحث عنها.

كان صباح السفر مشبعًا بالحماس، وتلك الحماسة الجماعية التي لا تشبه إلا رحلات التخرج، حين تختلط مشاعر الترقب بالفرح، والفضول بالتوثب. وصلنا إلى مطار حائل على متن طائرة صغيرة، تحملنا نحن الطلاب بآمالنا العريضة وحقائبنا المملوءة بالذكريات والخيال.

في المطار، كان في استقبالنا مندوب من إمارة المنطقة، بابتسامة رسمية وترحيب دافئ، لم يخفِ علينا حسن التنظيم وروح الضيافة. ومن هناك، انتقلنا إلى فندق الجبلين، أحد أشهر فنادق المدينة آنذاك، والذي كان بمثابة نقطة الانطلاق لبرنامج زيارتنا الذي بدا واعدًا وحافلًا بالأنشطة.

في الفندق، توزّعنا على الغرف بسرعة، كلٌ مع رفيقه الأقرب، ثم اجتمعنا في بهو الفندق الواسع، حيث عُرضت علينا تفاصيل البرنامج: زيارات ميدانية، لقاءات مع مسؤولي الزراعة في المنطقة، جولات في الحقول، ومحاضرات تعريفية عن المشاريع

الزراعية القائمة في حائل. لم يكن البرنامج مجرد استكشاف، بل كان تجربة غنية تجمع بين المعرفة والميدان.

كانت تلك الرحلة أكثر من مجرد زيارة علمية. كانت نافذة على مدينة تحمل في قلبها إمكانيات واعدة، وناسًا طيبين، وأفقًا مهنيًا بدا لي آنذاك مشرقًا ومفتوحًا. شعرت حينها أنني على أعتاب مرحلة جديدة، وأن حائل قد تكون الصفحة الأولى في فصلي التالي من الحياة.

جولة في شركة التنمية الزراعية بحائل



مع بزوغ شمس اليوم التالي، تحركت بنا الحافلة في طريقها إلى أحد المعالم الزراعية البارزة في المنطقة: شركة حائل للتنمية الزراعية، المعروفة اختصارًا بـ"هادكو"، على الطريق القديم الذي يربط حائل بالقصيم. كان الطريق هادئًا، والمشهد من نوافذ الحافلة يغري بالتأمل؛ مزارع متناثرة، وتضاريس تتباين بين السهل والتلال، وسماء مترامية الأطراف كأنها تعد بمستقبل مفتوح الأفق.

عند بوابة الشركة، بدا التنظيم لافتًا منذ اللحظة الأولى. استقبلنا فريق من المختصين بابتسامات ترحيبية وصدور رحبة، وسرعان ما بدأ البرنامج دون إبطاء. أخذونا أولًا إلى حقول القمح، تلك المساحات الشاسعة التي تمتد أمام العين بلا نهاية، خضراء زاهية ومهيبة في سكونها، تنبض بالحياة والعمل الصامت.

ثم توالت محطات الجولة: صوامع الحبوب، وحدات الري المحوري، مرافق التخزين، ومراكز الأبحاث الزراعية. كنا ننتقل من موقع إلى آخر، نُصغي بشغف لشرح المهندسين والفنيين، نلتقط الصور، ونسجل الملاحظات. هناك، ولأول مرة، **تبلورت في ذهني فكرة أن الزراعة لم تعد مجرد مجهودات شخصية أو عادات موروثة كما كنا نظن، بل باتت علمًا متكاملاً، منظومة تتطلب دقة في الحسابات، وتخطيطًا طويل الأمد، وإدارة لا تقل عن أي مشروع صناعي ضخم.**

ما شدني أكثر هو كيف استطاعت الشركة أن تدمج بين الحداثة والخبرة المحلية، وأن تُحوّل التربة الجافة إلى سلة خبز، وأن تُسخّر التكنولوجيا لخدمة الإنتاج، دون أن تنفصل عن البيئة أو تفقد هويتها.

خرجت من تلك الزيارة بشعور مختلف. لم أعد أنظر إلى الزراعة كخيار تقليدي أو حرفة قديمة، بل كقطاع حيوي وواعد، يحمل في طيّاته تحديات كبيرة وفرصًا أكبر. كانت تلك الجولة بالنسبة لي درسًا عمليًا ووجدانيًا معًا، اختلط فيه العلم بالإلهام، وأضاء لي جانبًا من المستقبل لم أكن قد تأملته من قبل.

زيارة مزارع نادك بحائل



في صباح اليوم الثالث من رحلتنا العلمية إلى حائل، شددنا الرحال نحو محطة جديدة من محطات الاكتشاف الزراعي: مزارع شركة نادك، إحدى أكبر الشركات الزراعية في المملكة، والتي كثيرًا ما سمعنا عنها في محاضراتنا، لكن رؤيتها على أرض الواقع كانت أمرًا مختلفًا تمامًا.

الطريق إلى هناك كان هادئًا ومريحًا، لكن الحماس في داخلنا كان يتصاعد. كنا نعلم أننا على موعد مع منشأة لا تقل شأنًا عن "هادكو"، بل قد تتفوق عليها في بعض الجوانب. وما إن وصلنا إلى البوابة، حتى أدركنا أن هذا اليوم سيكون مختلفًا. التنظيم بدا

محكمًا، والمكان يشعّ بحيوية العمل المنضبط، وكأن كل شيء فيه يتحرك بإيقاع مدروس.

بدأت الجولة في المزارع الواسعة التي بدت كمشهد من فيلم وثائقي، حيث تمتد المساحات الخضراء إلى الأفق، وتتحرك آلات الري المحوري بانسيابية تامة. لكن ما أثار دهشتنا حقًا لم يكن فقط حجم الإنتاج أو تقنيات الزراعة المتقدمة، بل الفلسفة التي تقوم عليها الشركة: **"نخطط للتسويق قبل أن نزرع البذور".**

توقفت طويلًا عند هذه الجملة، وراحت تتردد في رأسي طوال الجولة. لم أكن أتصور أن التسويق الزراعي يمكن أن يسبق الزراعة نفسها، وأن اختيار المحصول، وكمياته، وحتى موعد الحصاد، يُبنى على قراءة السوق لا على اجتهاد تقليدي أو حدس شخصي. كانت هذه النظرة الاستراتيجية بمثابة كشف جديد بالنسبة لي، حيث التقت الزراعة

الحديثة بعالم الاقتصاد، لتنتج نموذجًا متوازنًا بين الإنتاج والاستهلاك، بين الأرض والسوق.

كما شاهدنا عن قرب معدات متطورة، وآليات فرز وتغليف، ومراكز تدريب للكوادر المحلية، وكل ذلك يجري بانسجام واضح بين التخطيط والتنفيذ. كان العمل هناك يبدو وكأنه أوركسترا متكاملة، كل آلة وكل موظف وكل قرار يؤدي دوره بدقة متناهية.

خرجنا من تلك المزارع ونحن نحمل تقديرًا عميقًا لهذا النوع من الزراعة الحديثة، التي لا تكتفي بكونها إنتاجًا غذائيًا، بل تمثل فكرًا اقتصاديًا ورؤية طويلة الأمد. كانت نادك درسًا في الطموح المؤسسي، وواحدة من أكثر محطات الرحلة إلهامًا.

اكتشاف مدينة حائل



لم تَقتصر رحلتُنا على حقول القمح ومشاريع الري الحديثة؛ فقد حرص زملاؤنا الحائليون على أن ينفضوا عنّا رتابة البرامج الأكاديمية ويلبسونا عباءة المُستكشفين مع حلول المساء. ما إن غربت شمس اليوم الثالث، حتى انطلقنا في سياراتهم باتجاه **منتزه مِشّار**؛ ذلك المتنفس الأخضر الذي كان، آنذاك، أيقونة السياحة في حائل. عند بوابته ارتفعت أشجار الطلح وكأنها حراسٌ يلوّحون لنا، بينما تسللت نسمة

عليلة مُحمَّلة برائحة الأرض الرطبة بعد سُقيا خفيفة من المطر، فتضاعف إحساسنا بالصفاء.

تجوّلنا بين ممرات المنتزه المرصوفة، تحيط بنا مصاطب صخرية وحدائق مُدَرَّجة تُمكّن العين من التقاط لوحة بانوراميّة للجبال الباسقة في الأفق. هناك، كان صوت الماء المتدفق في مجاريه الاصطناعية يمتزج بضحكات الأطفال، فيُعزف لحنٌ من البهجة الصافية. توقفنا عند منصّة مرتفعة وأطللنا على مدينة حائل وهي تبدأ في ارتداء عقد أضوائها الليلية؛ مشهدٌ تختلط فيه الذكريات بالدهشة، كأنه توقيع أخير على يومٍ حافلٍ بالتعلم والاكتشاف.

لم ينتهِ المساء عند هذا الحدّ؛ فقد أقام لنا الأصدقاء **مخيّمًا بريًّا** خارج حدود المدينة. امتدّت السجّادة الرملية حولنا بلا انقطاع، ورُفِعَت نارُ الحطب وسط دائرة رحبة من المقاعد. تعانق وهج الجمر مع زرقة السماء المرصّعة، فيما تناوبنا على سكب القهوة

العربية واسترجاع الحكايات؛ روى أحد الأساتذة قصة أول موسم حصادٍ شهده، واسترسل آخر في سرد نوادر البحث الميداني، بينما كان الصمت الودود بين القصص يسمح لصوت الصحراء بالوصول إلى قلوبنا بلا حواجز.



في تلك الليلة، تلاشت الحدود بين الطالب والأستاذ، وبين الغريب وأهل البلد؛ صرنا جميعًا رفقاء ترحال تجمعنا نجوم واحدة وسمر واحد. وحين لاح أول خيط من خيوط الفجر، اكتشفنا بدهشة أننا لم

نشعر بمرور الساعات، وأن نار المخيم التي أوقدناها للدفء تحولت سرًّا إلى شعلةٍ من الألفة لا تنطفئ في الذاكرة.



زيارة خاصة لمزرعة الأمير مقرن بن عبدالعزيز



سمو لأمير منطقة حائل مع طلاب كلية الزراعة بمزرعته بحائل

جاء اليوم الأخير من رحلتنا وكأن القدر أراد له أن يكون مسك الختام، لا بشيء تقليدي أو متوقع، بل بلقاء لا يُنسى وتجربة استثنائية لا تحدث كل يوم. كنا على موعد مع زيارة إلى مزرعة سمو الأمير مقرن بن عبدالعزيز في منطقة "الخُطة" شمال حائل، وما إن وصلنا حتى استقبلنا أحد منسوبي الإمارة بترحاب

دافئ، دلّ على كرم أهل حائل واهتمامهم بأدق التفاصيل.

تحركنا في أرجاء المزرعة بخطى حذرة، نراقب التفاصيل بعين المتخصص والطالب في آنٍ معًا. وبينما كنا نستعد للشروع في الجولة، اقترب منا رجل يرتدي قميصًا بسيطًا وبنطال جينز، يسبق خطاه هدوء وابتسامة صادقة. بادي الرأي، خاله كثيرٌ منا أحد العاملين بالمزرعة. لكن الدهشة لم تلبث أن باغتتنا حين همس المرافق قائلاً: "إنه الأمير مقرن بنفسه"!

كم كانت المفاجأة عظيمة! لم يكن بيننا من توقّع أن نلتقي سموه شخصيًا، فضلاً عن أن يتولى بنفسه تعريفنا بتفاصيل المزرعة! ببساطته اللافتة وتواضعه الأخّاذ، بدأ الأمير حديثه معنا كما لو كنا أصدقاء قدامى.

أخذ يسرد معلومات عن تقنيات الزراعة، مواسم الغرس، وخصائص التربة، كأنه أحد أساتذتنا في الكلية. لم يقتصر الأمر على الكلام، بل قادنا بجولته بنفسه، إلى **البيت المحمي** حيث تُزرع النباتات البرية خارج مواسمها. وكانت **رائحة الخزامى** تعبق في المكان، ناعمة، نديّة، تسري في الصدر مثل نسيمٍ لا يُنسى.



ثم دعانا الأمير إلى مكتبته الشخصية. دخلنا، وإذا بالأرفف تزخر بكتب زراعية نادرة، معظمها باللغة الإنجليزية، تدلّ على اهتمام حقيقي بالعلم والمعرفة.

لم يكن مجرد مسؤولٍ يتابع من بعيد، بل عقلٌ زراعي باحث، عاشق لما يزرع ويدرس ما ينتج.

لكن اللحظة الأشدّ وقعًا جاءت فجأة، عندما قال لنا الأمير مبتسمًا:

"سأجعلكم ترون القمر في عزّ الظهر"!

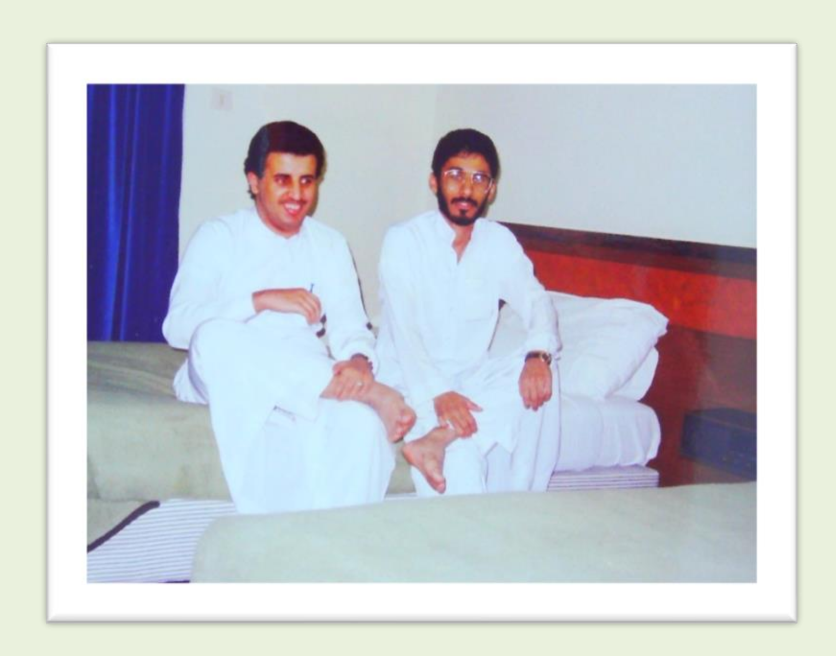
ضحكنا، ظنًا أنها طرفة خفيفة يود بها إنهاء الجولة، لكن ما إن تبعناه حتى قادنا إلى **مرصد فلكي** في المزرعة، مجهز بتلسكوب ضخم. جلسنا نراقب من خلاله السماء كما لم نفعل من قبل؛ لم تكن مجرد سماء، بل كونًا رحبًا انفتح لنا من نافذة مجهولة، وفي قلب النهار.



وفي ختام هذه الزيارة المدهشة، دعا الأمير الجميع إلى **مأدبة غداء فاخرة**، جلس فيها بيننا بلا حواجز، كما لو أنه واحد منا. ظلّ معنا حتى لحظة وداعنا، يودعنا بودّ واهتمام وكأننا ضيوف في بيته، لا وفد جامعي عابر.

كانت تلك الزيارة الأخيرة في جدول الرحلة، لكنها ستبقى أولى الذكريات في القلب. لم تكن مجرد محطة أكاديمية، بل لحظة إنسانية نادرة جمعت بين العلم، والدهشة، والبساطة، والكرم. **حائل**، كما عرفناها في تلك الأيام، لم تكن مجرد مدينة، بل روحًا حيّة فتحت لنا أبوابها، وتركتنا نغادرها وقلوبنا معلّقة بها.

مع صديق الرحلة/أحمد العندس

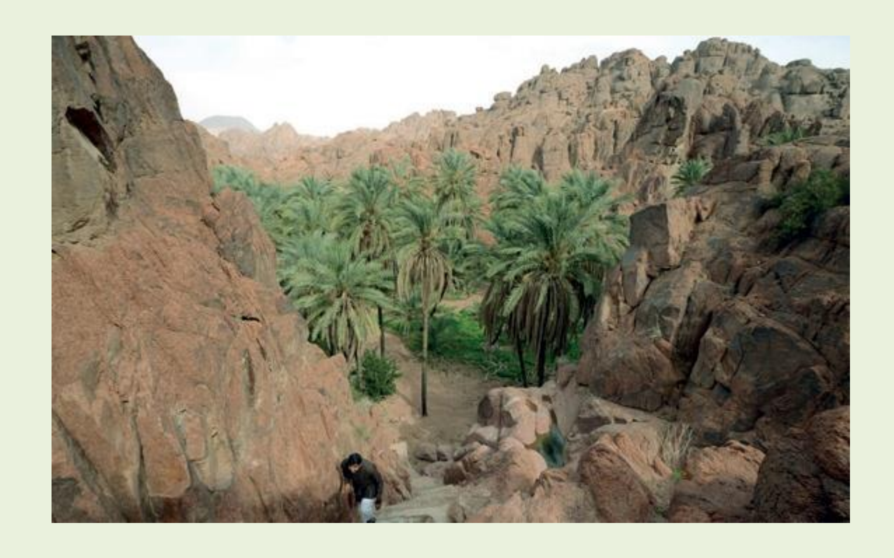




الفصل الثالث

حائل في الألفية

زيارة جبال سلمى: واحة في السماء



بعد أن بدأتُ عملي معلّمًا في العام 1990م، بدأت تتسع دائرة معارفي من الزملاء، وكان من بينهم عدد كبير من أبناء منطقة حائل، لكنّ معظمهم لم يكونوا من قلب المدينة، بل من القرى والمدن الواقعة جنوبها؛ من بطاح البادية وسفوح الجبال حيث يلتقي البساط الأخضر بالصخر الشامخ.

فتح لي ذلك الباب لاكتشاف حائل من زاوية مختلفة تمامًا، زاوية الريف الأصيل، والبدايات الهادئة، والطبيعة التي لم تطلها يد التحضّر بعد.

في إحدى الإجازات، دعاني أحد الزملاء لزيارة **محافظة الشنان**، التي كانت حينها لا تزال تتهيأ لتصبح محافظة رسمية. خرجنا في الصباح الباكر، والهواء لا يزال نديًّا، متجهين صوب الجنوب الشرقي، حيث تبدأ **جبال سلمى** في رسم ظلالها الطويلة على الأرض وكأنها تحرس الذاكرة. مررنا أولاً بمزارع القمح التي تتناثر على جانبي الطريق، سنابلها الذهبية تميل مع النسيم وكأنها تحيينا.

ثم جاءت المفاجأة: أخبرنا مضيفنا أن الجولة الحقيقية ليست في السهول، بل في الأعالي. فقد قرّر أن يصحبنا في مغامرة إلى قمم جبال سلمى! هناك، حيث لا يصل إلا من قرّر أن يواجه وعورة الدروب بحثًا عن أسرار الجمال. كانت **طريقًا جبلية صعبة**، حُفرت بتعاون الأهالي عبر السنين، ممهدة خصيصًا لسيارات الدفع الرباعي التي بدت كأنها تتسلّق صخور الزمن.

كان الطريق خطرًا، متعرجًا كأفعى بين الصخور، لكن سائقنا، وقد بدا أنه يعرف كل التفافة فيه، قادنا بثقة وثبات. وما إن وصلنا إلى القمة، حتى اصطدمت أعيننا بمشهد لم نكن نحلم به حتى في أكثر الصور خيالًا :**واحة نخيل** تنتصب وسط حضن الجبال، محاطة بجدران صخرية شاهقة تحميها من كل الجهات، وكأن الطبيعة خبّأتها هناك بعيدًا عن العيون.

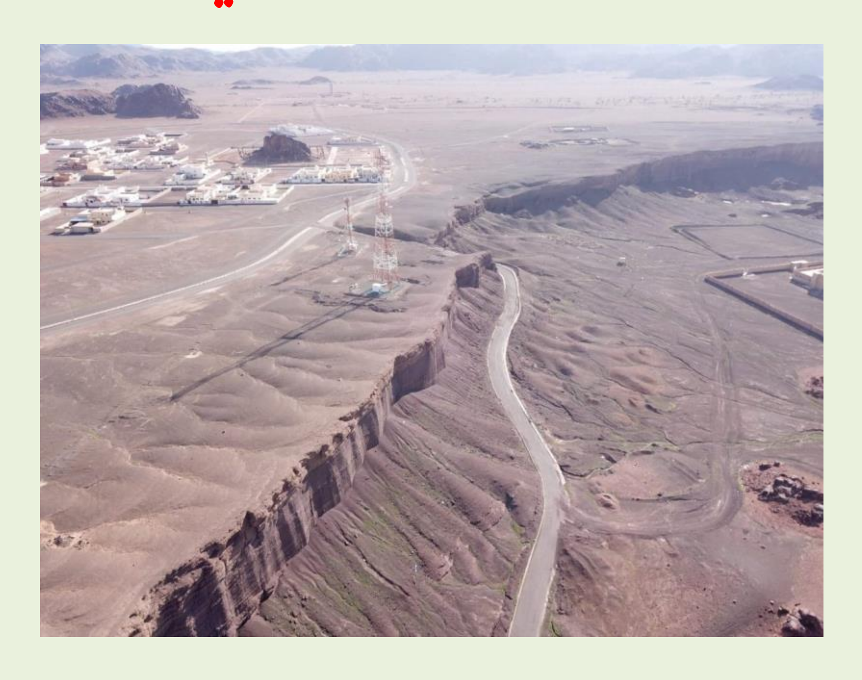
أخبرنا مضيفنا، بفخر مملوء بحنين، أن آباءهم وأجدادهم كانوا يزرعون تلك القمم، ويسكنونها صيفًا، أو يلجأون إليها حين كان الأمن شحيحًا، قبل أن تنعم بلادنا بنعمة الأمان والاستقرار. كانت تلك الواحة، في الماضي، ملجأً وملاذًا، حكاية مختبئة بين الصخور.

وقفنا عند **نخلة شامخة**، مهجورة اليوم لكنّها لا تزال صامدة. جذعها متشقق بفعل الزمن، لكن رأسها مرفوع إلى السماء. بجانبها، شاهدنا **قبرًا**

صغيرًا .أخبرنا مرافقنا أن هذا قبر صاحب النخلة، أحد رجال الجبل الذي ربط عمره بأرضه، حتى مات فيها ودُفن تحت ظلّ شجرته التي غرسها بيده.

في تلك اللحظة، عمّ صمت غريب. لم يكن في وسع الكلمات أن تعبّر. كان المشهد أعمق من اللغة، أبلغ من الحديث. أمامنا كانت **حكاية عمرٍ كامل** محفورة في النخلة، في الجبل، في القبر، وفي صمتنا.

زيارة قرية النعي



في زيارة أخرى، توجهنا إلى **قرية النعي**، التي يقال إنها نشأت فوق **فوهة بركان** قديم. ما حدث في هذه المنطقة كان مثيرًا، فقد تسبب **تصدع كبير** في الأرض بعد حدوث الزلازل، مما أسفر عن انفصال الطبقات الأرضية وظهور **شقوق سطحية** في الأرض. لم يكن منظر الأرض المحطمة أقل من مخيف، حيث كانت التصدعات التي لا تزال مستمرة تجسد قوة الطبيعة التي لا تترك شيئًا على حاله.



سرد لنا أحد الأهالي، أحمد، كيف أن هذه الظاهرة دفعت السكان إلى الإجلاء من المنطقة، فتم نقلهم إلى مناطق بعيدة عن الصدع. ومع ذلك، رفض **كبار السن** الرحيل، معلنين تمسكهم بأرضهم وزرعهم. كانت لديهم علاقة خاصة مع النخيل الذي زرعوه، فلم يكن لديهم رغبة في مغادرة المكان، رغم تحذيرات بتكرار الهزات الأرضية.

وحسب الدراسات التي درست هذه الظاهرة، فإن الاستنزاف المائي على مدار العقود الماضية قد أثر بشكل كبير على التربة. فقد أدى نقص الإمدادات المائية التعويضية إلى خلخلة الطبقات السطحية للأرض، مما أسفر عن تكوين فراغات هوائية في

الطبقات السفلى للبركان. ومع مرور الوقت، بدأت الأرض تهبط تدريجيًا، مما أدى إلى ظهور التصدعات والشقوق السطحية التي امتدت لتغطي معظم القرية.



بعد زيارة قرية **النعي**، توجهنا إلى **قبر عنترة بن شداد**، حيث يقال إنه مدفون في هذه المنطقة. كان القبر كبيرًا جدًا، ما أثار دهشتنا، رغم أنه لا توجد مصادر تاريخية تؤكد بشكل قاطع أنه دفن هنا. ومع ذلك، ظل هذا القبر جزءًا من **الموروث الشعبي**، وتناقله أهالي القرية عبر الأجيال، ليبقى رمزًا ثقافيًا مهمًا في ذاكرة المنطقة.

زيارة قرية فيد التاريخية



منذ أن وطأت قدماي **قرية فيد**، شعرت وكأنني انتقلت عبر الزمن إلى مرحلة تاريخية عظيمة. تقع هذه القرية في موقع استراتيجي على **درب زبيدة**، الذي كان يعد من أبرز طرق الحج في العصور الإسلامية، حيث يربط بين مكة المكرمة والعراق. فيد، بما تحمله من رمزية تاريخية، كانت وما زالت نقطة محورية على هذا الطريق القديم، وتحديدًا في منتصف المسافة بين المدينتين المقدستين.

من أبرز المعالم في قرية فيد هو **قصر خراش الأثري**، الذي يعود إلى فترة **الدولة العباسية** .القصر، المبني

من **الحجر**، يحمل في جدرانه قصصًا عن حياة القوافل ومرابط الحجاج الذين مروا عبره في طريقهم. كان ذلك القصر الذي بدا متماسكًا رغم مرور الزمان، شاهدًا على حضارة قديمة لم تُمحَ آثارها. وقفت أمامه مذهولًا، محاولًا استيعاب كم من الأرواح مرّت من هنا، كم من الحجاج الذين خاضوا هذا الطريق ليصلوا إلى مكة المكرمة في رحلة الحج العظيمة.

أمّا **البركة الضخمة** التي لا تزال قائمة إلى اليوم، فقد كانت أحد العناصر الأساسية في **درب زبيدة**، حيث كانت تمد الحجاج بالماء على مدار الطريق الطويل. وقفت قرب البركة، أشعر بجوها القديم الذي لم يمحُه الزمن، وكأنها تحتفظ بذكريات من الماضي، بحكايات من قوافل الحج التي توقفت هنا لترتاح وتستمد الماء لتكملة مشوارها الطويل.

ثم توجهنا إلى **المتحف الرسمي** الذي يضم قطعًا أثرية نادرة تعود إلى تلك الحقبة الزمنية، ووقع نظري

على كل قطعة معروضة وكأنها تنبض بالحياة. كان المتحف بمثابة سردٍ حيّ لتاريـخ هذه المنطقة، ولم أستطع إلا أن أتمعن في التفاصيل التي قدمها لنا القيمون على المتحف. شرحوا لنا بعناية فائقة عن الآثار التي تم العثور عليها في المكان، وكيف كانت هذه الآثار جزءًا من حياة الناس الذين مروا هنا.

وفي تلك اللحظة، شعرت وكأنني في قلب التاريـخ ذاته، أعيش تفاصيل **درب زبيدة** بأبعاده الثقافية والحضارية، وكيف كانت هذه القرية محطة من محطات الزمن، تحمل في طياتها قصصاً لم تُكتب بعد، وشهادات حضارة عريقة قدمت كل ما لديها للزمن.

رحلة إلى قلب جبال أجا



في بدايات عام 2025م، تلقيت دعوة كريمة من محمية الملك سلمان الملكية للمشاركة ضمن وفد جمعية حماية الطيور في زيارة ميدانية إلى مدينة "موقق"، الواقعة غرب منطقة حائل.

لم أتردد لحظة في قبول الدعوة، فقد كانت فرصة ذهبية للعودة إلى جبال أجا التي طالما أسرتني بجمالها، ولكن هذه المرة كانت الرحلة مختلفة، ذات طابع بيئي ورسالة سامية.

انطلقت رحلتنا في صباح باكر تتخلله نسمات الشتاء العليلة، ومع أول خيوط الشمس التي تسللت عبر الأفق، بدت جبال أجا شامخة في البعيد، تقف كحارس قديم يحفظ أسرار الأرض وتاريخها. كنت قد زرت هذه الجبال في أعوام مضت، خصوصًا أثناء نزهاتنا البرية في قرية "عقدة" القريبة، تلك القرية التي تحتضنها الجبال بين أحضانها، وكانت دومًا وجهة محببة لعشاق الطبيعة والهدوء. لكن هذه الزيارة لم تكن للسياحة أو الترفيه، بل لحماية الكائنات التي تشاركنا هذا الكوكب، وتحديدًا النسور التي تعيش في هذه البيئات الجبلية النادرة.



اصطحبنا فريق المحمية في جولة ميدانية منظمة داخل حدود جبال أجا. سلكنا طرقًا وعرة بين الصخور والتضاريس القاسية، وارتقينا مرتفعات تطل على وديان عميقة وتكوينات صخرية مذهلة نحتتها الرياح والمطر عبر قرون طويلة. في كل زاوية كنا نرى الحياة تنبض في صمت... نباتات صحراوية صامدة، وزواحف متخفية بين الصخور، ونسور تحلق في الأعالي بجلال وهيبة.

كان أحد أبرز لحظات الرحلة وقوفنا على حافة منحدر شاهق، حيث أشار أحد المرشدين إلى عش نسر ضخم بين شقوق الجبل المقابل. استخدمنا المناظير لرؤية التفاصيل، وكانت لحظة مؤثرة حين رأينا النسر يرفرف بجناحيه العريضين ليحط قرب عشه، في مشهد يعكس قوة الطبيعة واحتياجها للحماية.

خلال الجولة، تبادلنا الحديث مع خبراء المحمية حول التحديات التي تواجه النسور، من فقدان

الموائل الطبيعية إلى خطر التسمم والصيد الجائر. وتحدثوا عن جهودهم المستمرة في مراقبة الأعداد، وتوفير بيئة آمنة لها للتكاثر والعيش.

ما شدّني أكثر من أي شيء هو الصمت الذي يلف الجبال... صمت لا يُشعر بالوحشة، بل بالهيبة والطمأنينة. كانت الطبيعة تتحدث بلغتها الخاصة، ونحن مجرد زوّار نتأمل ونحاول أن نفهم ونحمي.

مرّ الوقت سريعًا، كأن الساعات تبخّرت بين حديث الطيور وهدير الرياح. ومع غروب الشمس، كنا نغادر المكان ونحن نحمل في قلوبنا دهشة الجمال، وفي أذهاننا مسؤولية كبرى تجاه هذه الكائنات وموائلها.

لقد كانت الرحلة إلى جبال أجا تجربة فريدة، أعادت إليّ الإحساس العميق بجمال الأرض وضرورة حمايتها، وأكدت لي أن الطبيعة رغم قوتها، تبقى في حاجة إلى من يحميها من عبث الإنسان وإهماله.





بالسيارة برفقة الأصدقاء عبدالله السحيباني وإبراهيم الشوامين وأخي هشام متوجهين لموقق

في حضن الذكرى... حائل لا تُنسى

ليست حائل مجرد محطة عابرة أو وجهة سياحية تُزار وتُنسى، بل هي تجربة تنغرس في القلب وتبقى حيّة في الذاكرة مهما تقادمت السنوات. من اللحظة الأولى التي تطأ فيها قدماك أرضها، تشعر بشيء مختلف؛ شيء لا يُرى بالعين، بل يُحسّ بالقلب. خليط مدهش من طبيعة خام لم تمسّها يد العبث، وبشر بسطاء، بقلوب واسعة كاتساع صحرائهم، وملامح تحمل كرم الأرض وصفاء السماء.

في حائل، يبدو الوقت أبطأ، لكنه أغنى. تتبدّل المشاهد من وادٍ منبسط إلى جبل يعلو في الأفق، ومن صخور منقوشة بذكريات الإنسان الأول إلى شعابٍ تخبئ ظلال الراحة للمسافر المتعب. تسير في طرقها فترافقك النسائم وتداعبك رائحة التراب حين تلامسه أشعة الشمس أو تطريه زخات المطر.

كأن الأرض هنا تتحدث إليك، تخبرك أن كل شجرة، كل صخرة، كل درب... له حكاية تنتظر من يصغي.

وما يزيد المكان سحرًا هو ساكنوه. الطيبة في حائل ليست صفة عابرة، بل هي نمط حياة. في كل بيت تطرقه، تجد صدرًا مفتوحًا وقهوة تنتظرك على الجمر. وفي حي الزبارة، تحديدًا في بيت عمي الطيني، عرفت كيف تكون الجدران الطينية أدفأ من الإسمنت، وكيف يُمكن لجلسة شاي في فناء بسيط أن تختصر معاني الألفة والسكينة. هناك، عشت لحظات شعرت فيها بأن الزمن توقّف، وأن العالم كله اختزل في بساطة اللقاء وصدق الوجوه.

مرّت أعوام على زياراتي المتعددة لحائل، وكل واحدة منها كانت تحمل نكهة مختلفة. مرة من أجل الطبيعة، ومرة لأجل الناس، وأخرى لأجل الحنين وحده. لم تكن الرحلات متشابهة، بل كأنها فصول من كتاب طويل لم أفرغ من قراءته بعد. كل مرة أغادرها أقول: "هذه الزيارة لن تُنسى"، ثم أعود لاحقًا

لأكتشف أن الذكريات الجديدة تنافس القديمة في العمق والدفء.

لذلك، أؤمن أن حائل ليست مكانًا يُزار، بل حكاية تُعاش وتُروى. وربما يأتي يوم أكتب فيه عن كل زيارة على حدة، عن اللحظات الصغيرة التي صنعت الفارق، عن الناس الذين التقيناهم ولم ننسَ وجوههم، عن الطرق التي مشيناها والبدايات التي كُتبت هناك. فكل زاوية في حائل تُلهم، وكل يوم يُقضى فيها يستحق أن يُسطر بحروف من محبة وامتنان.

فهرس المحتويات

المؤلف: صالح محمد صالح الهلابي

- **الميلاد :**وُلدت في ربيع عام 1966م في بيت أسرتي الطيني بعيون الجواء، منطقة القصيم.
- **الإقامة :**أعيش في مدينة الرياض منذ عام 1968م.
- **التعليم :**تخرجت من جامعة الملك سعود عام 1990م.
- **الخبرة العملية :**لدي خبرة في الوظيفة العامة تمتد لأربعين عاماً، شغلت خلالها منصب مدير لمدة خمس وعشرين سنة.
- **العمل الحالي :**أشغل حالياً منصب المدير التنفيذي لجمعية حماية الطيور.
- **النشاطات :**ناشط في المجال البيئي، متخصص في حماية الطيور.
- **الإصدارات :**صدر لي عدد من الكتب في مجالات متنوعة.
- **التواصل :**
  - **الجوال**(+966 555 488 890)
  - **البريد الإلكتروني:**
  - helabis@gmail.com
  - **www.**alhelabi.com